## سامية حاتم

إلى أين؟

بخطِها المُنمق انسابت الكلمات على أولى ورقات روايتها في ليلة كان انعكاس قمرها على سطح البحر يملأ عينيها، ونسيم هوائها يُداعِب خلاياها، فشعرت وكأنها تحلق في أُفِق آخر يفقدها الوعي بما حولها، لتسرد ما في ذهنها لدفترها قائلة "كنت أحسَبه لن يمر بسهولة عليّ وأن عواقبه الوخيمة ستنهال على شتى أمور حياتي، لكن مع مرور الوقت وهدوئي النسبي للوضع الراهن وإدراكي أن هذا لم يكن سببًا بل كان نتيجة، نتيجة لمبدأ الإتقان المُتقَن، نتيجة لكون الدراسة محور الحياة بل كانت تقتصر الحياة عليها، نتيجة لمقاومتي ما يحدث داخلي من انهيار تراكم حتى أنهك قوتي، حتى تجلى وأصبح لايمكن التغافل عنه، ولكن للأسف قد فات أوان هذا وحدث ما لم أكن أتوقع حدوثه، فقد كان أبعد ما في خيالي أن يحدُث، ولمن؟ لي! فقد رَسبتُ في عامي الجامعي الثالث بعد مقاومة دامت لسنوات طويلة حاولت خلالها بكل ما أوتيت من قوة أن أصمُد و أُكمِل للنهاية، بكيت.. تألمت.. انهرت، لكني لم أنكسِر، فقد حدث لي أكبر مخاوفي في الحياة آنذاك، فماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك؟ لاشيء، فقد فُرقِع بالون خوفي، وهنا وعند هذه النقطة الفارقة قررت أن أبدأ صفحة جديدة في كتاب رحلة حياتي، وذلك كان بدعم والدتي التي كانت لي بمثابة الدُعامة التي لايستطيع الكاهل الاستغناء عنها، نعم لا أُبالغ حين أصِفني وقتها بالكاهل، فقد أعطاني هذا الحدث عمرًا فوق عمري، وبدعم مُعلِمي الذي لولاه ما كنت عرفت الطريق إلى نفسي، فقد نويت أن أفعل ما لم

أجرؤ على فِعله مسبقًا ولم أستطع القيام به تحت وهم محور الحياة بالنسبة لي وقتها..

سافرت كثيرًا لأنطلِق بحرية بعيدًا عن معتقدات عقيمة فرضتها التقاليد المحيطه بنا، لا بل أنا وبإرادتي اخترت وقتها ألا أختار وأن أسمح وبدون وعي مني أن أجعل هذه المعتقدات أن تسجن حُريتى وتُقيد نفسي معها، حاربت كثيرًا في البداية مع من حولي وانتُقِدت أكثر، لكنى ضربت بكل هذا عرض الحائط، اخترت أن أختار القادم بإرادتي فهو ملك لي وليس لهم.. وكان لي ما أردت بل أكثر مما أردت.

كانت أولى خطوات نشأتي الجديدة هي السفر، سافرت وقتها ليس في توقيت طبيعي، بل تحديت نفسي وسافرت أثناء امتحانات السنة المعادة، أردت أن أختلى بنفسي كي أصل إليّ، كي أتواصل معي، كي أقف لأعلم إلى أين أنا ذاهبة، أردت أن أعتزل العالم حتى لا أسمع سوى صوتي الداخلي، فقد أوقفت حواسي عن إدراك أي شيء حولي أثناء سفري الذي امتد لساعات طويلة، فقط وضعت تركيزي على الطبيعة الخلابة التي كانت تقتصر نظرات عيني عليها، فقد كان شموخ الجبال المحاط برونق الشجيرات في حضرة صفاء السماء أروع لوحة يمكن أن تقع عليها عيناك، ظللت أتأمل مُسقِطة كل ما أراه على حياتي، فالله الذي خلق الجبال صامدة مهما مر بها من عواصف، والشجيرات مبهجة رغم صعوبة الظروف المحيطة بها من جفاف، والسماء مبهجة وملهمة مهما تكتلت بها السحب لتُغيم وتتغلب عليها فتُشرِق شمسُها بعد سقوط أمطارها..

ظللت أتأمل وبدون وعي وكما يعلمونني في الهندسة الإسقاط الهندسي، طبقت هذا المبدأ ولكن بإسقاط الطبيعة المحيطة بي عليّ، فكلما اشتد العسر اقترب الفرج كالسماء وسحابها، فقد أودع الله بي شموخ الجبال وصمودها، نعم خُلِقت فتاة قوية لا تكسرني عواصف ولا تهلكني قوة خارجية..

فإذا كان ما مررت به أثر فيّ وهزني فلم يضعفني بل زادني قوة، فرُب ضارة نافعة، فربما أراد الله بي حياة غير تقليدية كالتي كنت أحياها قبل حدوث ذلك، والتي كنت سأُكمِل بها إذا لم أتعرض لهذا كي يفتح لي أبوابًا كنت أظُن أن لم يُخلق لها مفتاح.

(لكنها لم تنعم بكل ما خططت له في ذهنها بأن تقتصر رحلتها على الاعتزال والتأمُل والتدبُر فقط، فقد كان هناك من يراقب هذا الهدوء المثير للفضول من فتاة لم تتخطّ أوائل العشرين من عمرها، تمتلك من جاذبية الملامح ما يجعله أكثر إثارة لاكتشاف من تكون هذه الشخصية الغامضة، فلم يقتصِر الأمر على ملامحها فقط، فقد كانت أشعة الشمس تعكس لون عينيها البندقي الذي كان يأسر كل من يراها لعمق نظراتها، فقلما نجد من ننجذب إلى عيونِه التي تلمع إثر نقاء روحه، لكن هيهات أن ينال فضوله فرصة حتى التعرف عليها)

كُنت أجلس لأتأمل جمال إبداع خلق الله حتى بدأ حوار لكنه من نوع خاص،

فقد كان بيني وبين نفسي أو على الأحرى بين عقلي ونفسي.

فقد بدأت نفسي في التحدث تلقائيًا حين رأت روعة المنظر المتجلي أمامها قائلة: كم جميل هذا الكون! وكم هو أجمل خالقه الذي برحمته على عباده المصطفين أن يصبحوا على وفاق مع ذلك الكون!

رد عليها عقلي قائلاً: أعلم، ولكن ما حكمة الله في أن يحدث لي ذلك مع كل ما بذلته من مجهود نفسي وذهني قبل أن يكون مجهودًا جسديًا؟ وما الذي يريد الله أن يجعلني أراه أو يُلقى نظري عليه؟ مرددة بانفعال بصوت حزين مكتوم: لولا أنه حوار داخلي لكدت أجزِم أن تردد صدى صوتي بين الجبال كاد أن يصل لأعلى نقطة بقمته.. يا إلهي ألهمني معرفة حكمتك.

(على الجانب الآخر كان هناك من يحاول بشتى الطرق أن يخترق هذا الحاجز الصمتي، وبعد عدة محاولات باءت بالفشل أدرك أن السبيل الوحيد إليها ليس من خلالها بل خلال جدتها، نعم فجدتُها كانت رفيقتها في هذه المغامرة، فرغم كبر سنها إلا أنها كانت تعشق هذا النوع من المغامرات في صعود الجبال ولم تكن المرة الأولى التي تفعل بها هذا، فظل يبادل أطراف الحديث مع هذه الجدة التي تجاوزت الستين من عمرها رغم أن كل من يراها يفترِض أنها لم تتخطّ الأربعين، لكنه كان يملك من الذكاء الكافي والخبرة ما يجعله يدرك أنها فتاة من عائلة تتسم بالأخلاق والرقي والغنى، وقد أشاد

بهذا – بعد أول حوار مفتعل منه بينهما أراد فيه أن يتقرب لها لكن محاولته باءت بالفشل – لجدتها، لكنه لم ييأس واستمرت محاولاته الظاهرة لمن حوله ولكنها كانت تكرر نفس رد الفعل وهو اللامبالاة، وانتهى وقت السفر وترك كل منهما الآخر ظنًا منها أن هذا شيء ومر ليس أكثر، ولكن كان هذا عكس ما كان يراه هو تمامًا، فقد رأى بها ما لا يجعله يتركها تمر مرور الكِرام بحياته!)

هكذا ومرت أيام وقد نَسيتُ الأمر ولكنه لم ينسَ، وكيف ينسى وقد وجد ضالته؟ فقد كان يتواصل مع من كان يعلم أنها السبيل لما يُريد، استطاع أن يأخُذ جدتي لصفِه بذكائه وخفة ظله التي جعلتها تتآمر معه عليّ حتى استطاع الحديث معي ورغمًا من أسلوبي الفظ المُتعمد معه محاولة مني أن أُنَفّره وأُبعِده عني – فقد كُنت أحمل ما يكفيني من الألم ويفيض – إلا أنه لم يستسلم فاستطاع أن يخترِق وبدون استئذان حصونًا منيعة بنيتُها في سنين كي لا يستطع أحد الوصول إليها حتى نَسيتُ كَوني فتاة من الفطري أن أمتلك مشاعر أقل ما يُقال عليها إنها طبيعة في الخليقة، لكن اضطرابي آنذاك منَعني من إدراك أو الأعتراف بهذا.. استمر في محاولاته واستمررتُ في رفضي حتى حدث ما لم أتوقعه وما لم يخطر لي ببال، فقد عرض عليّ الزواج، ليس هذا الغريب بالأمر ولكن الغريب أو من الصعب تصديقه هو عرضه لي هذا في ثاني مكالمة منه لي بعد عام من لقائِنا الأول قدرًا والذي لم يتكرر.

(نعم فقد أثرت فيه وتركت بصمتها التي لا تدرك تأثيرها إلى أن حدث ذلك فلم يقتصر الأمر على جمال ظاهري فقط، بل كان يكمن في الجمال الروحي، فرغم محاولتها لإظهار عكس ذلك إلا أن صوت شخصيتها الحقيقية كان يعلو صوت حروفها).

مع ذلك فَعَلتُ عكس البديهي من وجهة نظر كثيرين ورَفَضت – بشكل لائق غير مباشر – عرضه، فقد رفضتُ شخصًا يملك من الجرأة ما يجعله يتقدم لفتاة رغم محاولاتها المستمرة لصَدِه، ومن الرجولة ما يجعله يصمم بلوغ هدفه بأن يكمل معها حياته، ومن الجاه والسلطة والمال ما يُفقِد عقول من يسمع ما يملكه، لكني لم أعتبر للجوانب المادية أيًا من الاعتبارات الموروثة داخل الكثير، فقد أطلقت العنان لعقلي كي يفكر ويحلل ويُمنطِق الأمور، فكنت أرى ما لا يرونه ولا أستطيع قوله، فقد كنت أعلم أنه شخص مناسب بل أكثر من المناسب، لكنه ليس بالشخص المناسب لي كي نبني حياة ناجحة سويًا، وقررت وقتها أن أُنهي الموضوع وأستمر بحياتي وأكمل المسار الذي وضعته لنفسي..

ما لم يكن من المتوقع بعد ذلك أن يأتى مجددًا بعد أكثر من ثمانية أشهُر ويكرر عرضه، وقتها فكرت أن أُعطيه فرصة أخرى وأن أمنح لنفسي وقتًا للتفكير ثانيةً بعدما أصبحت أكثر نضجًا إثر ما مررتُ به من تجارب زادت الوعي لديّ لأصبح قادرة على رؤية الأمور من منظور أوسع وأشمل، لكن أودى قراري بالنهاية لنفس النتيجه الأولى وهو نفسه الحدس الذي انتابني منذ أن ألتقيت به.

مر عليّ عامان عِشت بهما تجربة غيرت بي الكثير، حركت بي شيئا ما كان راكدًا، جعلتني أنتبه لوجود الفتاة التي بداخلي، عَلّمَتني التصالح مع الذات، فقد كنت أدّعي القوة دائمًا وعدم الاكتراث لشيء رغم انشغالي بالتفكير به طوال الوقت، فكلما زادت مكابرتي للاعتراف بما بداخلي كلما زاد ألمي، فقد كنت أشعر بشيء ما تجاهه ولكني لا أريد الاعتراف بذلك ولا حتى لنفسي مع إدراكي الكامل بأنه ليس إلا شعور عابر ناتج عن اختلافه عن من قابلتهم بحياتي المحدودة وقتها لا أكثر، وبمجرد مصارحتي لنفسي بذلك بدأ الاضطراب وعدم الاستقرار الذي امتلكني وقتها في التلاشي حتى الاختفاء نهائيًا، جعلتني أُدرك أن قبولي لضعفي قوة ولا ينتقص مني كما كنت أظُن بل يزيدني اتزانًا نفسيًا، جعلتني قادرة على أن أُكمل القادم من حياتي بشخصية أقرب ما تكون للفطرية التي خلقنا الله عليها..

فلولا هذه التجربة الممتنة لها والتي أُود لو استطعت أن أشكُر صاحبها الذي كان سببًا وبدون إدراك منه في تغيير الكثير في ما كُنت أكملتُ حياة مشرقة أحياها الآن بفضل الله وكرمِه لِعباده.

تساقطت أشعة الشمس على ورقات دفترها مُعلنة بداية يوم جديد لم تشعر بانتهاء ليلته لانسجامها بأداء حصتها اليومية من الكتابة، ولكنها قبل أن تغلق دفترها أرادت أن تختم هذا الفصل من روايتها فخَطت في ورقاتها (أحيانًا نمُر بأشياء نظن أنها أسوأ ما

يمكن أن نتعرض له، لكن ما نقرأه من بين سطور الأيام أنها أدخلتنا عالمًا لم يكن يعلم حتى خيالنا عنوانه!).

ثم أغلقت دفترها لتُكمِل يومها الذي كانت بدايته سعيًا لتحقيق حلمها بأن تظهر روايتها للنور كي تصل لقُراء أرادت أن تُخبِرهم بقيم أودعتها بين كلمات فصول روايتها موقنة أنها ستُحقق ذلك قريبًا..